الفصل الأول

يهود أم جماعات يهودية

يتصور كثير من الدارسين أن كلمة (يهودى) دال له مدلول واضح ومحدد يشبه فى وضوحه وتحدده دالاً مثل «ألمانى» . فالألمانى هو فرد ينتمى إلى الفرع النوردى من الجنس الأبيض من الناحية العرقية، وإلى الحضارة الغربية من الناحية الحضارية العامة، وإلى الثقافة الجرمانية من الناحية الإثنية. وهو يتحدث الألمانية، وينتمى إلى الشعب الألمانى. والعناصر المشتركة بين أفراد هذا الشعب كثيرة ومهمة، ولذا فهى ذات مقدرة تفسيرية وتصنيفية تفوق بمراحل العناصر غير المشتركة بينهم (تعدد اللهجات – تنوع الألوان المحلية – انقسامهم إلى طبقات).

ولذا يتحدث كثير من الدارسين عن اليهود وكأنهم كتلة واحدة متماسكة ومتجانسة فعلاً، ويتم التعبير عن هذا بكلمات مثل كلمة «جورى Jewry » الإنجليزية التى تعنى «اليهود باعتبارهم كُلاً متماسكاً»، ويصبح افتراض الوحدة والتماسك والتجانس أكثر وضوحا حينما يتحدث الباحث عن اليهود باعتبارهم «الشعب اليهودى» و«الأمة اليهودية» وهو ما يعنى أن اليهود ينتمون إلى تشكيل حضارى واحد، وأن لهم تاريخا واحدا، ومصيرا واحدا، ومستقبلا واحدا، وربما

عرقا واحدا وانتماءً ثقافيًا واحدًا، وأن مصالحهم واحدة وتطلعاتهم واحدة، وأن العناصر المشتركة بين يهود العالم أكثر أهمية من العناصر غير المشتركة.

والسؤال الذى يطرح نفسه: إذا كان ثمة عناصر مشتركة بين يهود العالم، فما هى ؟ وهل هذه العناصر المشتركة أكثر تفسيرية وأهمية من العناصر غير المشتركة؟

التاريخ اليهودى

لنأخذ، على سبيل المثال، فكرة «التاريخ اليهودى» الذى هو مصطلح يفترض وجود تاريخ يهودى مستقل عن تواريخ جميع الشعوب والأمم، وهو مفهوم تتفرع عنه وتستند إليه مفاهيم الاستقلال اليهودى الأخرى. ومفهوم التاريخ اليهودى يفترض أن لهذا التاريخ مراحله التاريخية وفتراته المستقلة ومعدل تطوره الخاص، بل أيضا وقوانينه الخاصة، وهو تاريخ يضم اليهود وحدهم، يتفاعلون داخله مع عدة عناصر مقصورة عليهم، من أهمها دينهم وبعض الأشكال الاجتماعية الفريدة. واستقلالية أى بناء تاريخى تعنى استقلالية بناه الاقتصادية والاجتماعية، وكذلك استقلالية البنى الحضارية والرمزية المرتبطة به، وتجانسها النسبى فى كل مرحلة من مراحله. كما أن هذا البناء يضم جماعة من الناس لا وجود لها خارجه، ولايمكن فهم سلوكها إلا فى إطار تفاعلها معه. ولكن من الثابت تاريخيا أن الجماعات اليهودية المنتشرة فى العالم كانت تتسم بعدم التجانس وعدم الترابط وبأن أعضاءها كانوا يوجدون فى مجتمعات

مختلفة تسودها أنماط إنتاجية وأبنية حضارية اختلفت باختلاف الزمان والمكان. فيهود اليمن، فى القرن التاسع عشر، كانوا يعيشون فى مجتمع صحراوى قبلى عربى. أما يهود هولندا فكانوا فى الفترة ذاتها يعيشون فى مجتمع حضرى رأسمالى غربى. ولكل هذا نجد أن سلوك اليهودى اليمنى ورؤيته للكون تحكمها إلى حد كبير عناصر البناء التاريخى العربى الذى يعيش فيه، تمامًا كما تحكم سلوك يهود هولندا ورؤيتهم مكونات البناء التاريخى الغربى الهولندى.

والآن، إذا افترضنا جدلاً وجود تاريخ يهودى، فما هى أحداث هذا التاريخ؟ هل الثورة الصناعية، على سبيل المثال، ضمن أحداث هذا التاريخ، أم أنها حدث ينتمى إلى التاريخ الغربى؟ فى الواقع سنكتشف أن الثورة الصناعية حدث ضخم فى التاريخ الغربى، ترك أعمق الأثر فى يهود العالم الغربى، وأحدث انقلابا فى طرق حياتهم ورؤيتهم للكون فى القرن التاسع عشر، أى بعد حدوث الانقلاب بفترة وجيزة، لكن هذا الانقلاب لم يحدث لهم باعتبارهم يهودا وإنما بأعتبارهم أقلية توجد داخل التشكيل الحضارى الغربى، إذ إننا سنجد أن هذا الانقلاب فى طرق الحياة والرؤية للعالم قد حدث أيضا لأعضاء الأغلبية ولأعضاء الأقليات الأخرى الموجودة داخل المجتمعات الغربية. وفى الوقت نفسه، لم يتأثر يهود العالم العربى بالثورة الصناعية بالدرجة نفسها، ذلك لأن التشكيل الحضارى العربى كان بمنأى عن هذه الثورة الصناعية فى بداية الأمر، لكن بعد نحو قرن من الزمان، بدأ هذا التشكيل يتأثر بالثورة

الصناعية، وبالتالى بدأ أثرها يمتد إلى معظم المجتمعات العربية بأغلبياتها وأقلياتها، أما يهود إثيوبيا فلم يتاثروا إلابشكل سطحى، لأن المناطق التى يعيشون فيها ظلت بمنأى عن هذه التحولات الكبرى، وبقيت ذات طابع قبلى حتى الوقت الحاضر. لذا يمكن القول بأن معدل تأثر اليهود بالثورة الصناعية مسألة مرتبطة بكونهم أعضاء فى مجتمع ما . فإذا تاثر هذا المجتمع بالثورة الصناعية فإن أعضاء الجماعات اليهودية يتأثرون بها بالمقدار ذاته، وإذا فالإطار المرجعى للدراسة لا يمكن أن يكون التاريخ اليهودى. ولو جعل الباحث هذا التاريخ مرجعيته لعجز عن تفسير كثير من عناصر عدم التجانس والتفاوت فى هذا التاريخ، ولاضطر إلى لَيِ عنق الحقائق ليفسر سبب تأثر يهود لندن بالثورة الصناعية فور حدوثها ولم يتأثر بها بعض يهود إثيوبيا حتى الآن!

هوية يهودية وموروث يهودى

إذا كان من الصعب قبول مقولة «التاريخ اليهودى» فإنه يصبح من الصعب بالتالى الحديث عن «الهوية اليهودية» أو عن «الشخصية اليهودية»، إذ إن من الواضح أن أعضاء الجماعات اليهودية هم جزء لا يتجزأ من التشكيلات الحضارية التى يعيشون فى كنفها، يتفاعلون معها تأثيرًا وتأثرًا، شأنهم فى هذا شأن أعضاء الأغلبيات والأقليات.

لنأخذ على سبيل المثال الموروث الثقافى لأعضاء الجماعات اليهودية: إننا سنلاحظ مثلاً أن اللغات التى يتحدثون بها تختلف باختلاف

المجتمع الذى ينتمون إليه، فهم يتحدثون الإنجليزية فى البلاد التى تتحدث بها، والفرنسية فى فرنسا، والجورجية فى جورجيا .

وتشير المراجع الصهيونية إلى اللادينو (وهى رطانة إسبانية كان السفارديم يتحدثون بها)، واليديشية (وهى ألمانية العصور الوسطى بعد أن دخل عليها بعض المفردات العبرية والسلافية، وتُكتب بحروف عبرية، كان يهود شرق أوربا يتحدثون بها). نقول إن المراجع الصهيونية تشير إلى هاتين الرطانتين بُحسبانهما تعبيرًا عن الاستقلالية اليهودية. لكن من المعروف أن ظاهرة اللهجة المستقلة ليست مقصورة على اليهود فكثير من أعضاء الأقليات ممن يضطلعون بوظيفة معينة (كالتجارة والربا) يبقون على لغتهم وسيلة للحديث، ولعل من أصدق الأمثلة على ذلك الأرمن فى الدولة العثمانية والصينيون فى جنوب شرق آسيا، الذين يضطلعون بوظائف مالية محددة، فهؤلاء يتحدثون لغتهم الأصلية ويحتفظون بتماسكهم، لكن بزوال وظيفتهم يرحلون عن الوطن أو يندمجون فيه، وهذا ما حدث للادينو واليديشية، فالأولى انقرضت تماما، أما الثانية فقد اصبحت لغة المسنين فى بعض بقايا الجيوب اليهودية فى شرق أوربا، وهى فى طريقها إلى الاختفاء.

ويقوم المؤلفون اليهود بوضع مؤلفاتهم بلغة أوطانهم، وحتى المؤلفات الدينية التى كانت تكتب بالأرامية أوالعبرية، فإنها تكتب الآن بالإنجليزية أوالفرنسية أو الألمانية، أو بأية لغة يجيدها المؤلف من أعضاء الجماعات اليهودية، ولم يعد يكتب بالعبرية سوى المؤلفين الإسرائيليين.

وإذا تركنا اللغة (هذا الوعاء البالغ الأهمية) ونظرنا إلى الأدب والفنون التشكيلية، فسنجد أن التقاليد الأدبية والفنية التي يبدع المؤلفون والفنانون اليهود من خلالها هي تقاليد بلادهم. ولا يمكن فهم إبداعات هؤلاء الحضارية إلا بالرجوع إلى موروثات بلادهم الحضارية، ولو عاد الباحث إلى مفهوم الهوية اليهودية العامة والعالمية لضل سواء السبيل تماما. وقل الشيء نفسه عن الأزياء والأطعمة والطرز المعمارية.

وحتى لو كان ثمة خاصية ما تفصل اليهود عن محيطهم الحضارى، فإن هذه ا لخاصية (مثل تكلُّم يهود شرق أوربا باليديشية بعض الوقت) تظل مقصورة على أقلية يهودية بعينها، ومرتبطة بملابسات تاريخية وأوضاع اجتماعية وفترة زمنية محددة. وبالتالى، فهى ليست خاصية يهودية عامة أو عالية، وإنما هى خاصية تتسم جماعة يهودية ما بها، توجد داخل زمان ومكان محددين، وهى فى هذه ا لحالة الجماعة اليهودية فى شرق أوربا من القرن السادس عشر حتى منتصف ألقرن العشرين. وهى أيضا خاصية لا تربط بين هذه الجماعة اليهودية وغيرها من الجماعات، بل بالعكس، إنها تزيدها فُرقة وتنوعا، فاليهود خارج هذا الزمان وهذا المكان لا يتحدثون اليديشية، وبعضهم يرفضها، وقد نشب صراع بين دعاة اليديشية من أنصار قومية الدياسبورا ودعاة العبرية من الصهاينة، كما هاجم مثقفو حركة الاستنارة فى ألمانيا اليديشية باعتبارها ألمانية مشوهة ولغة الغش التجاري والتخلف الحضاري! وقد

اختفت اليديشية، بينما استمر يهود شرق أوربا فى الوجود، يتحدثون لغات أوطانهم: الروسية، والبولندية، والأوكرانية ، والألمانية.

سفارديم وأشكناز ويهود العالم الإسلامى

يمكن تصنيف الجماعات اليهودية المتنوعة على عدة أسس، كلها ذات مقدرة تفسيرية وتصنيفية جزئية. وهذا يعود إلى إشكالين أساسيين كامنين فى الشرع والموروث الدينى اليهوديين: فاليهودى يُعرَّف بأنه من وُلد لأم يهودية أو تهوَّد بحسب الشريعة. وهو ما يعنى أن هناك أساسًا عقائديًا (التهود والإيمان باليهودية) وأساسًا عرقيًا (الأم يهودية)، أى أن الإنتماء إلى اليهودية يمكن أن يتم على أساس أى من المنطلقين. كما أن اليهودى الملحد يظل يهوديًا على الرغم من إلحاده (وهذا أمر ينفرد الشرع اليهودى به دون الإسلام أو المسيحية).

ويمكن تصنيف أعضاء الجماعات اليهودية، على أساس عرقى أو إثنى، إلى مجموعات كبرى ثلاث:

١ - السفارديم :

هم اليهود الذين كانوا يتحدثون اللادينو، وهم نسل أولئك اليهود الذين عاشوا فى شبه جزيرة أيبيريا أصلاً، وحينما طُرد أعضاء الجماعة اليهودية منها اتجهوا إلى الدولة العثمانية واليونان وشمال إفريقيا، وكانت قطاعات من يهود المارانو المتخفين (الذين أظهروا الكاثوليكية وأبطنوا اليهودية هربًا من محاكم التفتيش) تلحق بهم وتشهر يهوديتها

فتصبح من السفارديم. وكان بين السفارد نخبة تمتلك مهارات إدارية، كما كانت تمتلك رأس مال كبير يؤهلها للاضطلاع بدور التجارة الدولية. وفعلاً كوَّن السفارد شبكة تجارية دولية فقاموا، بالتالى، بدور أساسى فى تطوير الرأسمالية الغربية. ولهم طريقتهم الخاصة فى الصلاة والطقوس الدينية، ولذا يمكن الإشارة إلى النهج السفاردى فى العبادة، كما أن عبريتهم تختلف عن عبرية الأشكناز، وكان السفارد أكثر اندماجًا فى محيطهم الحضارى وأكثر استيعابًا للحضارة العربية ثم الحضارة الغربية. وظهر فى صفوفهم الفيلسوف إسبينوزا ورئيس الوزراء دزرائيلى، وثمة عداء متأصل بين السفارد والأشكناز، فالسفارد كانوا أرستقراطية اليهود، وكان استقرار الأشكناز فى أماكن تجمعهم يسبب لهم الحرج، وكانوا لا يتعبدون معهم ولا يتزوجون منهم، وكانوا يحاولون الاحتفاظ بمسافة بينهم، وقد انقلب الوضع رأسًا على عقب بعد أن تحولوا إلى أقلية وحقق الأشكناز بروزًا فى الحضارة الغربية، وبعد إعلان دولة إسرائيل.

٢ – يهود الشرق والعالم الإسلامى :

يُشار إلى يهود الشرق والعالم الإسلامى بأنهم «سفارد» أيضًا، وهذه تسمية مغلوطة، ويعود هذا إلى أن كثيرًا من يهود العالم الإسلامى يتبع النهج السفاردى فى العبادة، لكن هذا لا يجعلهم من السفارد، فتجربتهم الدينية والثقافية والتاريخية مختلفة تمامًا. وينقسم يهود العالم الإسلامى إلى عدة أقسام، أهمها يهود البلاد العربية أو اليهود المستعربة الذين استوعبوا التراث العربى وأصبحوا جزءًا لا يتجزأ منه،

غير أن هناك جماعات صغيرة أخرى ، مثل اليهود الأكراد وبقايا السامريين ويهود جبال الأطلس من البربر ويهود إيران ، وغيرهم. ويتميز كل فريق بأنه مستوعب فى إطاره الحضارى للمجتمع الذى يعيش فى كنفه فيتحدث لغة، بل أيضا لهجة المجتمع الذى يعيش فيه، ويتعامل مع العالم من خلال أنساق هذا المجتمع الثقافية والرمزية. وهناك أحيانًا سمات دينية فريدة لأعضاء هذه الجماعات الصغيرة، تعزلها عن التيار الرئيسى لليهودية، إذ إن المكون الإثنى كثيرًا ما يؤثر فى المكون الدينى ويغلب عليه.

٣ - الأشكناز :

هم أساسًا يهود شرق أوربا (روسيا/ بولندا) الذين يتحدثون اليديشية. ويعود اصلهم إلى ألمانيا (أشكناز بالعبرية) ومع أن أغلبية الأشكناز كانت تتحدث اليديشية، فقد كان الأشكناز يتحدثون اللغات الأوربية الأخرى، وحينما كان المهاجرون الأشكناز يغادرون بولندا إلى بلاد مثل هولندا وإنجلترا ثم الولايات المتحدة، كانت المجتمعات المضيفة (بما فى ذلك أعضاء الجماعة اليهودية فيها) تعتبرهم متخلفين، فقد كانوا يعملون كصغار مرابين وباعة متجولين، وكانوا يحضرون معهم بعض الأمراض الاجتماعية، كالغش التجارى والدعارة. وكانوا يظهرون عزوفًا عن الإندماج، ولاسيما أن أزياءهم وطريقة قص شعرهم مختلفة، فكانت تميزهم وتعزلهم عن محيطهم الحضارى الجديد. وصيغ الدين اليهودى التى يعرفونها تختلف عن الصيغ التى يعرفها السفارد.

ولذا، يمكن الحديث أيضًا عن النهج الأشكنازى فى العبادة، والمسألة اليهودية كانت أساسا مسألة يهود شرق أوربا من الاشكناز، وقد ظهرت جميع الحركات الفكرية اليهودية الحديثة فى صفوفهم أيضًا: حركة الاستنارة اليهودية، اليهودية الإصلاحية، اليهودية المحافظة، قومية الدياسبورا، البوند، وأخيرًا الصهيونية التى بدأت كحركة أشكنازية تهدف إلى تأسيس دولة أشكنازية، لكن يهود الشرق والعالم الإسلامى وبقايا السفارد اكتسحوها.

إصلاحيون ومحافظون وأرثوذكس وطوائف وعبادات أخرى

يمكن تقسم يهود العالم من الناحية الدينية إلى قسمين أساسيين:

١ - يهود إثنيون وهؤلاء فقدوا كل علاقتهم بالعقيدة اليهودية والموروث الدينى، وهم يرون أن يهوديتهم تكمن فى إثنيتهم؛ أى فى أسلوب حياتهم وموروثهم الثقافى، ويمكن القول بأن أكثر من نصف يهود أمريكا يهود بهذا المعنى، أما فى الاتحاد السوفيتى (سابقا)، فإن عددهم يزيد عن ذلك كثيرًا، ويشار إلى هذا الفريق بأنه اليهود الملحدون أوالعلمانيون.

٢ - يهود يؤمنون بصيغة ما من صيغ العقيدة اليهودية، وهؤلاء ينقسمون إلى عدة أقسام:

(أ) اليهودية الأرثوذكسية : هى وارثة اليهودية الحاخامية أوالمعيارية أوالتلمودية. وهى الصيغة اليهودية التى سادت بين الجماعات

اليهودية الأساسية فى الغرب منذ العصور الوسطى حتى نهاية القرن التاسع عشر. ويؤمن اليهود الأرثوذكس بأن التوراة مرسلة من الإله، وبأن كل ماجاء فيها مُلزم. ولذا، فهم يرون ضرورة أن يلتزم اليهودى بتنفيذ الوصايا والنواهى (المتسفوت)، وضرورة إقامة الشعائر كافة، بما فى ذلك شعيرة السبت والطعام الشرعى.

(ب) اليهودية الإصلاحية : هى أول المذاهب اليهودية التى تحدت اليهودية الحاخامية وظهرت فى ألمانيا (مهد الإصلاح الدينى المسيحى)، وتُعدُّ ترجمة لفكر عصر الاستنارة. وهى تحاول أن تعبر عن العصر الحديث، فتُحكِّم العقل فى كل شىء، وتحاول أن تفصل المكون الدينى عن المكون العرقى أو القومى فى العقيدة اليهودية بحيث يصبح المكون وحده مُلزمًا، ويسقط أى تفسير قومى لأفكار مثل «العودة» و«النفى». بحيث تصبح كلها أفكارًا تعبِّر عن تطلع دينى يتحقق فى آخر الأيام، أو بالتدريج عبر التاريخ. وهذا كله يهدف إلى تعميق ولاء اليهودى للوطن الذى يعيش فيه ودمجه فى محيطه الحضارى بحيث يتحول إلى مواطن فى الشارع ويهودى فى منزله. (ومع هذا تم صهينة اليهودية الإصلاحية، شأنها شأن معظم التيارات والطوائف اليهودية الأخرى).

(جـ) اليهودية المحافظة : هى مجموعة من التيارات الفكرية تصدر عن الإيمان بأن العقيدة اليهودية تعبير عن روح الشعب اليهودى الثابتة (لا روح العصر المتغيرة)، وبأن هذه العقيدة تطورت عبر التاريخ وأخذت أشكالاً مختلفة، وبأنها من ثم قادرة على التكيف مع اللحظة التاريخية.

فاليهودية ليست مجموعة عقائد ثابتة وإنما هى تراث أخذ فى التطور التاريخى الدائم. لكن أى تغيير يدخل على هذه العقائد لابد من أن يكون نابعًا من صميمها معبرًا عن روح الشعب اليهودى وهويته. ويمكن القول بأن اليهودية المحافظة ترى الدين اليهودى باعتباره، فى واقع الأمر، الفلكلور اليهودى، أو الروح القومية اليهودية. وهى فى هذا قريبة للغاية من الرؤية الصهيونية لليهودية، على الرغم من أن ما يهيمن على المؤسسة الدينية فى إسرائيل هى اليهودية الأرثوذكسية.

ولا تؤمن اليهودية الإصلاحية أو المحافظة بأن الكتاب المقدس مُرسل من الإله، وإنما هى مجموعة من الأقوال الحكيمة والأساطير الشعبية التى ألهم الخالق بعض الأنبياء بها لكنه لم يوح إليهم بها، ومن ثم، فمن حق المخلوق أن يتصرف بحسب ما يمليه العقل أو العصر عليه، فيُغيِّر ويُبدل فى الشعائر، بل يُسقطها تمامًا فى بعض الأحيان. ولذا فإن الإصلاحيين والمحافظين لايلتزمون الوصايا (الأوامر والنواهى)، ولا يقيمون شعائر السبت أوالطعام الشرعى إلا على نحو جزئى من قبيل الحفاظ على الفلكلور. وقد أباحت اليهودية الإصلاحية والمحافظة ترسيم النساء حاخامات، كما أباحت الشذوذ الجنسى بين الذكور والإناث، بل ويُرسَّم الآن الشواذ والسحاقيات حاخامين. والأغلبية الساحقة من يهود العالم الغربى إثنية أو محافظة وإصلاحية، ولا يشكل الأرثوذكس سوى أقلية لاتزيد عن ٥٪. ويلاحظ إقبال أعضاء الجماعات اليهودية على العبادات

الجديدة، مثل البهائية والماسونية وما يسمّى ديانات العالم الجديد (الإيمان بأن للهرم شكلاً ذا قوة سحرية خارقة، على سبيل المثال).

أمريكيون وفلاشاه

إلى جانب هذه التقسيمات الأساسية توجد جماعات هامشية لا حصر لها، وقد أشرنا إلى السامريين الذين لايؤمنون بالتلمود ولا بمعظم كتب العهد القديم، وإنما يؤمنون بأسفار موسى الخمسة أساسًا بنسختها المختلفة عن تلك المتداولة بين اليهود كافة ومركزهم هو جبل جرزيم في نابلس، لا جبل صهيون، وهم لا يؤمنون بمجئ الماشيَّح. وهناك أيضًا القراؤن الذين تمردوا على التلمود (بتأثير الفكر المعتزلي الإسلامي)، وزلزلوا اليهودية الحاخامية من جذورها، لكن لم يبق منهم سوى بضعة آلاف في كاليفورنيا وبعض مناطق روسيا وإسرائيل، وهناك بقايا يهود كايفنج في الصين، يعبدون يهوه الذي يسمونه تيين (السماء) ويتعبدون في معبدين يهوديين، أحدهما لعبادة الإله والآخر لعبادة الأسلاف، وهم لا يعرفون لا التلمود ولا التوراة، وملامحهم صينية تماما، ويمكن أن نشير إلى يهوديتهم بأنها يهودية كونفوشيوسية (تمامًا مثلما نجد أن يهودية بني إسرائيل في الهند يهودية هندوكية) . وهناك عشرات من الجماعات والطوائف والفرق اليهودية الأخرى الهامشية.

لكن بدلاً من الدخول في تفصيلات لا حصر لها، يمكن أن تقارن بين عيّنتين إحداهما مركزية وتضم يهود الولايات المتحدة الذين يشكلون أكبر

تجمع يهودى فى العالم، والأخرى هامشية وتضم الفلاشا الذين يشكلون تجمعا صغيرا هامشيا منعزلاً.

ينتمى يهود الولايات المتحدة فى الدرجة الأولى، إلى الجنس الأبيض، وأغلبيتهم الساحقة من أصل أشكنازى (ألمانى أو روسى / بولند). وتوجد قلة من السفارد، والقرائين، والكرمشاكى (وهم ينتمون إلى جماعة يهودية صغيرة فى شبه جزيرة القرم، يتحدث أعضاؤها بالتترية، ويبدو أنهم من بقايا يهود الخزر). وهناك أيضا بعض الأمريكيين السود الذين يُدعَون «العبرانيين السود» وهؤلاء يؤمنون بعقيدة شبه يهودية تتحدث عن مؤامرة الإنسان الأبيض لفصل آسيا عن أفريقيا عن طريق شق قناة السويس، ويدَّعون أنهم هم العبرانيون الحقيقيون، ومن ثم يرون أنهم هم وحدهم أصحاب الحق فى استرداد إسرائيل والإستيطان فيها وحكمها. وتوجد جماعة منهم فى شيكاغو هاجر أعداد منها إلى اسرائيل، حيث استقروا فى جوار ديمونا وفى أماكن أخرى، وهؤلاء لا تعترف إسرائيل أو المؤسسات الحاخامية بهم، بطبيعة الحال، ولذا فهم يشكلون أقلية منبوذة داخل كل من الدولة الصهيونية والجماعة اليهودية فى الولايات المتحدة.

أما الفلاشا، فهم من يهود إثيوبيا، وملامحهم لا تختلف من قريب أو بعيد عن ملامح بعض قبائل أو أقوام إثيوبيا. وإذا كان هناك بينهم من التنويعات، فهى تنويعات تشبه فى بعض الوجوه التنويعات الموجودة فىَ مجتمعهم. وهناك جماعة الفلاشا موراه، وهى جماعة مسيحية شبه

يهودية منبوذة من الفلاشا كانت قد تنصرت منذ ما يقرب من قرنين من الزمان.

ومن الناحية الدينية، ينقسم يهود الولايات المتحدة إلى قسمين أساسيين: يهود إثنيون لا أدريون ويهود متدينون وهؤلاء ينقسمون بدورهم إلى إصلاحيين ومحافظين وتجديديين وأرثوذكس (ويوجد بعض الفرق الأخرى شبه الدينية من أتباع العبادات الجديدة). واليهود الدينيون في الولايات المتحدة يتعبدون في المعبد اليهودى (السيناجوج)، ويرأسهم حاخام، ولايقيمون معظم الشعائر ولايكترثون بالطعام الشرعى أوبشعائر السبت والطهارة والنجاسة.

أما الفلاشا، فهم أساسًا خارج نطاق اليهودية الحاخامية، ولايعرفون التلمود، وتختلف بعض شعائرهم عن شعائر اليهودية الحاخامية، فشعائر الطهارة والنجاسة عندهم مركبة وشاملة، ومع هذا فهم يقيمون شعائرهم كلها (وقد صُدموا حينما هاجروا إلى إسرائيل بسبب انصراف أعضاء الدولة اليهودية عن الشعائر اليهودية)، ويرأس يهود الفلاشا قساوسة (يقال لهم قسيم)، وهم يعرفون نظام الرهبنة، إذ فيهم رهبان وراهبات، ويصلون في معبد يهودى يسمَّى المسجد، ويخلعون نعالهم قبل دخوله!

ومن ناحية اللغة فإن يهود الولايات المتحدة يتحدثون الإنجليزية، ويعرف بعض علمائهم العبرية والأرامية، كما توجد العبرية في بعض كتب الصلوات، أما يهود الفلاشا، فهم يتحدثون الأمهرية (ويتحدث

بعضهم بالتيجرينية). ويتعبدون بالجعيزية، لغة الكنيسة القبطية الإثيوبية، ويضم كتابهم المقدس بعض نصوص العهد الجديد.

ولكل جماعة يهودية خطابها الحضارى وفلكلورها الذى ينبع من محيطها الحضارى، ففى حالة يهود أمريكا، ينبع خطابهم الحضارى من محيطهم الحضارى الحالى (الأمريكى)، أو من محيطهم الحضارى السابق (روسيا - بولندا - ألمانيا - إنجلترا)، أما فى حالة يهود الفلاشا، فهو ينبع كله من محيطهم الحضارى الإثيوبى الإفريقى. وفى حين أن اليهودى الأمريكى يرتدى البنطلون «الجينز» ويأكل «الهامبورجر» ويرقص الديسكو ويعيش فى منزل عصرى. وقد يُطعَّم حديثه ببعض الكلمات اليديشية، ويتحدث بعض الحسيديين منهم اليديشيه كما يحتفظ بعضهم بالأزياء التى كانوا يرتدونها فى شرق أوربا، فإن يهودى الفلاشا يرتدى شالاً لا يختلف عما يرتديه من حوله من أبناء إثيوبيا، وهو يأكل طعامهم، ويرقص الرقصات المعروفة فى منطقته، ويعيش فى كوخ مغطى بالحطب لايختلف من قريب أو بعيد عن الأكواخ المجاورة، والوضع الاجتماعى ليهود أمريكا (نسبة الطلاق - الوظائف - المهن) ورؤيتهم للكون لاتختلف عن وضع الإنسان الأمريكى ورؤيته للكون. اللذين يختلفان بشكل جوهرى عن وضع الفلاشا ورؤيتهم. ولهذا كله، فبينما كانت الدولة الصهيونية تتلهف لهجرة يهود الولايات المتحدة إليها، فإنها كانت ترفض هجرة الفلاشا حتى سنة ١٩٧٣. ولئن كانت الدولة الصهيونية تشجع هجرتهم الآن، فليس ذلك بسبب أى تغيير طرأ على

هويتهم وإنما بسبب تغييرات طرأت على سياسة الدولة الصهيونية، بل أيضا على هويتها، ومدى حاجتها إلى العنصر البشرى. بل إن الدولة الصهيونية بدأت ترحب بالفلاشا موراه، مع أن هؤلاء لا يمكن اعتبارهم يهودًا مهما يتم من تطويع للكلمات قسرًا.

جماعات يهودية

يمكن القول : إن الاختلافات بين يهود الولايات المتحدة ويهود الفلاشا هى حقًا اختلافات جذرية فى جميع المجالات. لكن قد يقال إن مثل هذه الاختلافات العميقة موجودة عادةً بين المركز والأطراف فى أى تشكيل حضارى أو نسق دينى، فالجماعات المسيحية المتطرفة (المورمون مثلا) مختلفة جوهريًا عن الأشكال المركزية المسيحية، والقول نفسه ينطبق على الإسلام، وفى هذا بعض الصدق. بيد أن وضع اليهود واليهودية يظل فريدًا إلى حدٍكبير، فالمركز فى اليهودية اختفى منذ أمد طويل، الأمر الذى سمح بتطور الأطراف على نحو مستقل تمامًا عن المركز، أى مركز، وأصبح للأطراف شرعية لا تقل شرعية عما يسمَّى التيار الأساسى فى اليهودية. وحتى قبل أن يختفى المركز، كان النسق الدينى اليهودى يحوى تناقضات عميقة كثيرة، وعدد كبير من المفاهيم الدينية لم يستقر، فالسنهدرين (أعلى سلطة دينية يهودية فى القرن الأول الميلادى وهى التى قامت بمحاكمة السيد المسيح) كان يضم الصدوقيين الذين كانوا يؤمنون بيهودية وثنية هرمية صارمة لا بعث فيها ولا إيمان، وإنما عقيدة جافة جامدة تدور حول القرابين والشعائر المنضبطة والمرتبطة بالأرض تماما. لكن السنهدرين كان فى الوقت ذاته يضم الفريسيين الذين

كانوا يؤمنون بالبعث وبضرورة الإيمان باليوم الآخر (وكانوا يقومون بالتبشير باليهودية، وهو الأمر الذى لاتعرفه اليهودية) . وعلى الرغم من الاختلافات العميقة، كان الصدوقيون والفريسيون يجلسون جنبًا إلى جنب فى السنهدرين، ويمارسون نشاطهم الدينى، ولايمكن تفسير هذا الوضع إلا بعدم تبلور النسق الدينى اليهودى قبل تحطيم الهيكل وسقوط المركز، يضاف إلى هذا ما يمكن تسميته التعريف الثنائى لليهودى على أساس عقدى وعلى أساس عرقى الذى اسلفنا الإشارة إليه. ذلك كله سمح بظهور ما يمكن تسميته الخاصية الجيولوجية لكل من العقيدة اليهودية والهوية اليهودية (أو العقائد والهويات اليهودية إن أردنا توخى الدقة) وهى أن هذه العقائد والهويات تأخذ شكل تركيب جيولوجى مكون من طبقات مختلفة، مستقلة ومتراكمة أو متجاورة، لكنها غير ملتحمة أو متفاعلة، كما أنها لاتخضع لأية معيارية مركزية. ومع هذا، فإن هذه العقائد كافة سُميّت « يهودية » وسُمى كل هؤلاء « يهودًا »، وهو أمر كان مقبولاً أو يمكن تجاهله من قبل. لكن مع ظهور الدولة الصهيونية وبداية المواجهة بين هذه العقائد وتلك الهويات، تفجّر السؤال الذى لا يزال يبحث عن إجابة. من هو اليهودى ؟

لهذا كله ، نجد أن مصطلح « يهودى » مصطلح عام ومقدرته التفسيرية والتصنيفية ضعيفة إن لم تكن منعدمة بسبب عموميته وإطلاقه، ولذا فإننا نفضّل استخدام مصطلح « جماعات يهودية»، ونحرص على استخدامه قدر استطاعتنا (إلا إذا تطلب السياق غير ذلك)، فهو مصطلح يُصنّف هذه الجماعات اليهودية بحُسبانها « يهودية » ، لكنه يؤكد فى الوقت نفسه عدم تجانسها باستخدام كلمة « جماعات » .